■ الدراسة الأولى

جسر على مياه مضطربة
مشاركة تركيا إقليميًا ودوليًا

بقلم : جليا ليندنشتراوس وعوديد عيرن

تعمد تركيا منذ عدة سنوات، على تأسيس سياسة خارجية قوية تعتمد على العمق الاستراتيجي، كما يردد أحمد داود أوغلو، مستشار الشؤون الخارجية التركية، لرئيس الوزراء ، رجب طيب اردوغان، والذي يحتل اليوم منصب وزير الخارجية التركية، ووفقا لرؤيته ، أو فكره الاستراتيجي ، فإن السياسة الخارجية التركية تحدد أو تقوم على العمق الاستراتيجي ، والموقع الجيو استراتيجي الذي تحتله تركيا، وأنه بحسب هذه المكانة الجغرافية المتميزة لتركيا ، فإنها تحتل مكانة كبيرة بين دول البلقان، والبحر الأسود ، والبحر المتوسط ، وشرق آسيا، أيضًا، ما يؤهّلها لامتلاك مقومات سياسية ، واقتصادية كبيرة، وإقامة علاقات قوية مع كافة دول العالم ، كما أن تركيا تحاول أن تتجمل في صورة جديدة ، بمسمى جديد، وهو العثمانية الجديدة، وتحديد مكان مرموق في الخريطة السياسية ، وسط القوى الكبرى في العالم .

تحاول أنقرة أن تبني لنفسها موقعًا جديدًا على الخريطة العالمية ضمن « القوى الناعمة » ، مستغلة في ذلك الموقع الجيواستراتيجي لها ، والمكانة الكبيرة لها، كما أنها تحاول أن تحل مشاكلها الداخلية والخارجية بطريقة بسيطة ، بعدم تعقيدها الأمور في سياستها الخارجية . وقضية أو ملف العمق الاستراتيجي لتركيا ، يُبنى على حزمة من الأسس ، أو المحددات، من بينها ، أو أهمها، التدخل بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران حول ملف البرنامج النووي الإيراني ، وقضية تخصيب اليورانيوم ،

من جانب، واستمرار الوساطة بين سوريا وإسرائيل ، من جانب آخر، وما يمكن أن نسميه دبلوماسية كرة القدم، والحفاظ على العلاقات القوية مع أرمينيا، وهو ما تُوِّج بزيارة الرئيس التركي ، عبد الله جول ، لأرمينيا مؤخرًا، وخلال فترات التوتر ، والشد ، والجذب في منطقة القوقاز، وأثناء مرحلة التوتر بين جورجيا وروسيا ، حاولت تركيا التدخل المباشر بين الطرفين ، فضلاً عن تجديد المباحثات بين الطرفين في قبرص، خاصة بعد الانتخابات الرئاسية في الجانب اليوناني من قبرص، التي جرت في فبراير ٢٠٠٨، كما أنه بعد مرور ما يزيد عن أربعين عامًا ، أُختيرت تركيا عضوًا غير دائم في مجلس الأمن الدولي .

اعتبرت تركيا أن محاربة الإرهاب مسؤولية مهمة تقع على عاتقها في الفترة الأخيرة ، وأنها لذلك تحارب حزب العمال الكردستاني « البي كيه كيه » ، فلم تبدأ معالجة قضية الأكراد منذ مطلع العام الحالي فحسب، وإنما سبقتها بفترة طويلة، كما استجابت للضغوط الكردية الداخلية بعد القيام بأكثر من عملية إرهابية ، واستطاعت كبح جماح المواجهات الداخلية ، التى اندلعت في الفترة الأخيرة في الداخل التركي ، فيما واجهت مشكلة دخول قوات تركية للأراضي العراقية ، لمطاردة ، وتعقب قوات حزب العمال الكردستاني ، وفلول الإرهابيين .

من الجدير الإشارة إليه أن ثمة تعاونًا مخابراتيًا جرى بين الولايات المتحدة الأمريكية، وتركيا في شمال العراق، حول الأكراد، وحزب العمال الكردستاني، ومواجهة الأكراد في الشمال العراقي، وتقبلت الولايات المتحدة الأمريكية التدخل البري، والجوي من الجيش التركي في الشمال العراقي ، وتفهمت الإدارة الأمريكية هذا الوضع المغاير ، كما أن الجمهور التركي يحاول التقرب إلى الإدارة الأمريكية الجديدة ، في وقت عمدت فيه الإدارة الأمريكية الحالية إلى التعامل بالمثل مع

الأتراك بالتقرب إليهم ، ما يعني ثمة توافقًا بين الحكومتين التركية، والأمريكية .

■ تركيا والدول المحيطة بها :

ثمة تخوّفًا تركيًا مما يجري في العراق من احتلال أمريكي، ومن اقتتال داخلي، ومن مصير ومستقبل العراق ، بوجه عام ، فمن الصحيح أن الولايات المتحدة أعلنت، غير مرة ، أنها تنوي الانسحاب من العراق بحلول عام ٢٠١١، لكن هناك ضغوط تمارس عليها من أجل الاستمرار في العراق ، فالأتراك يتخوّفون من تفاقم مشاكل الأكراد في المنطقة، بوجه عام ، ومن إقامة فيدرالية كردية في شمال العراق ، والإعلان عن رغبتهم الحقيقية في إقامة دولة مستقلة، في المستقبل القريب، وهو ما سيكون له عواقب وخيمة على تركيا بشكل خاص ، دونما الدول المجاورة قاطبة، والتي لها علاقة ، أو تواجد للأكراد فيها، وربما تقوي هذه القضية الأتراك، أكثر، خاصة وأن هناك عدد كبير من رجال الأعمال الأتراك يعملون في الشمال العراقي ، ولهم مصالح كبيرة فيه ، وكذا لتركيا نفسها مصالح مشتركة مع الشمال العراقي، وبالتالي ربما تكون قضية ، أو ملف الأكراد على طرفي نقيض، أو سلاح ذو حدين، كما أن ثمة ارتباطًا عائليًا واجتماعيًا بين أكراد العراق، وأكراد تركيا، وإن كانت الأخيرة تحاول الحفاظ على علاقة الأكراد ـ الأتراك بدولتهم تركيا .

التخوف التركي من إقامة دولة مستقلة لهم كان سببًا جوهريًا للتقارب التركي ـ لإيراني ، في السنوات الأخيرة، لذلك فهي من أقوي المعارضين لإقامة دولة مستقلة للأكراد ، وكذا على تواجد قوات أمريكية في العراق، وهو ما تجلى في زيارة الرئيس لإيراني ، محمود أحمدي نجاد ، لتركيا ، في أغسطس من عام ٢٠٠٨ ، وكان اللقاء في مدينة اسطنبول ، وليس أنقرة، بدعوى أن اللقاء بين الرئيسين التركي والإيراني، ليس لقاءًا رسميًا، وإنما لقاء عمل، وليس له طقوس رسمية، وأن زيارة نجاد

لمتحف أتاتورك - أبو العلمانية التركية - تركت انطباعات متباينة داخل الشارع التركي بعد الزيارة، وربما كانت سببًا لتحسن العلاقات الإيرانية- التركية .

هناك مشكلة أخرى تؤرِّق الأتراك من الجارة الإيرانية، وتتمثل في البرنامج النووي الإيراني، والتخوّف من تأثير ذلك على تركيا، حيث تتخوف تركيا، من أن تحصل إيران على سلاح نووي تهدد به جارتها تركيا ، فيما بعد ، لكن في الوقت نفسه ترفض تركيا التدخل الأمريكي ، والإسرائيلي في الشؤون الداخلية الإيرانية ، أو فرض الوصاية على هذا البرنامج ، وإن كان رئيس الوزراء التركي، رجب طيب أردوغان ، يحاول عدم حصول إيران على سلاح نووي يهدد تركيا، فضلاً عن تحذير الجيش التركي ، والقوى التركية العلمانية ، من خطورة السلاح النووي الإيراني على جارتها تركيا، ومع ذلك لم نسمع في تركيا، عن الإعلان عن الدخول في غمار الحرب النووية ، أو التسلح النووي ، لكن يبدو أن تركيا كعضو في حلف الناتو، كان سببًا في عدم التفكير في ذلك .

في مقابل التقارب التركي - الإيراني، فإن ثمة تقاربًا تركيًا سوريًا ، أيضًا، بدأ يلوح في الأفق بقوة، نتيجة للمصالح المشتركة بين الطرفين، وخاصة حول الوضع المتدهور في العراق، وموقف الإدارة الأمريكية، السابقة، برئاسة جورج دبليو بوش من دمشق ، وكذا لقضية المياه بين الطرفين السوري والتركي ، كما أن العلاقات توطدت العام الماضي ، بقوة ، بعد التدخل التركي المباشر بين إسرائيل وسوريا ، حول الاتصالات بين الطرفين ، والتوسط التركي من أجل إقامة اتفاق سلام بينهما، حيث عقدت تركيا أربع جولات للمحادثات ، أو المفاوضات بين الجانبين.

كان من المفترض إقامة جولة خامسة من هذه المباحثات، حيث قال رئيس الوزراء الإسرائيلي، انسابق، إيهود أولمرت عقب الجولة الرابعة من هذه المحادثات ،

« إن من مصلحة إسرائيل الكبرى ، والمهمة فك ارتباط سوريا عن إيران ،وعن محور الشر الدولي ، لأنها مصلحة استراتيجية لإسرائيل » ، وهو التصريح الذي قاله في محاضرة بمركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي ، في حين كان اللقاء الأخير الذي جمع أولمرت بالمسئولين الأتراك، مع عبد الله جول، الرئيس التركي، و رجب طيب أردوغان ، رئيس الوزراء ، و وزير الخارجية السابق على باباجان، قد قال حينها : « إنه من الآن ، سيكون هناك تقارب في المفاوضات مع الجانب السوري، إنه من الممكن إقامة محادثات مباشرة مع السوريين » .

في أعقاب قيام إسرائيل بعملية عسكرية على غزة، نهاية عام ٢٠٠٨ (عملية لرصاص المصبوب) ، قرر السوريون تعليق المباحثات مع إسرائيل، وهو الموقف لذي اتخذته الحكومة التركية، أيضًا، وإن قال أردوغان ، ذات مرة : « إن السلام بين سوريا وإسرائيل لم يتم بعد ! » .

خلال عام مضى لم تقع أي أحداث جسام في العلاقات التركية ـ الإسرائيلية ، لكن تبدّل الوضع بعد عملية « الرصاص المصبوب » على غزة ، حيث توترت العلاقات بين الجانبين على خلفية مقتل ١٥٠٠ فلسطينيًا ، وإصابة أكثر من ٥٠٠٠ آخرين، وأنه كلما توترت العلاقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، فإنه يعود بالسلب على العلاقات التركية ـ الإسرائيلية ، غير أن زيارة أولمرت لتركيا قبل خمسة أيام من بداية الحرب ، فُهِمت خطأ بأن الأتراك على علم مسبق بموعد الحرب على غزة ، ما أثار حفيظة الأتراك . من جانب آخر فإن الأتراك لم يعلموا قط بهذا الموعد، أيضًا، كما أن أردوغان قد كال الاتهامات لإسرائيل لأكثر من مرة ، في أكثر من مناسبة عامة وخاصة ، ما زاد من توتر العلاقات بين الجانبين التركي والإسرائيلي . من بين تصريحات رئيس الوزراء التركي أردوغان : « إن استمرار الحرب على غزة

هو « جريمة ضد الإنسانية » ، و « إسرائيل تقوم بأعمال غير إنسانية في غزة » ، وما تبعه من موقف متشدد تجاه الرئيس ، شيمون بيريز ، في مؤتمر دافوس الاقتصادي بجنيف، وتهجمه اللفظي على الرئيس الإسرائيلي ، وانسحابه من المؤتمر .

بيد أن الرئيس التركي، عبد الله جول، قد حذَّر إسرائيل من مغبة استمرار الحرب على غزة، ومن نتائجها العكسية على المنطقة ككل، كما أن المظاهرات قد اجتاحت الشارع التركي، وبالآلاف من المواطنين، ضد السياسات الإسرائيلية بحق الفلسطينيين، حيث اعترض الأتراك على ما اقترفه الجنود الإسرائيليون بحق الفلسطينيين في قطاع غزة ، ودعوة الشارع التركي إلى قطع العلاقات الإسرائيلية - التركية ، وطرد السفير الإسرائيلي من أنقرة ، وقطع العلاقات ، والمصالح الأمنية، والعسكرية، والتجارية بين الجانبين، فضلاً عن رفض إقامة ، أو دخول فريق لكرة السلة الإسرائيلية تركيا، كما أن السياحة الإسرائيلية في تركيا تأثرت بدورها، بالسلب، لفترة طويلة، لكن هذا لا يعني أن هناك ثمة حسابات أخرى بين البلدين!

ما ساعد على التدخل التركي في الصراع، أثناء اندلاع الحرب على غزة ، نهاية عام ٢٠٠٨، ومطلع عام ٢٠٠٩ ، هو الطلبين الفرنسي والمصري ، ومحاولة لعب دور مركزي ، ومهم لأنقرة في حل الخلافات بين الجانبين ، وبين الدول العربية، أيضًا ، مع محاولة وساطة تركية في إقناع حركة حماس بوقف إطلاق النار ، كما أن الرئيس التركي، عبد الله جول، قد اشترك في قمة شرم الشيخ المصرية، التي عُقدت في أعقاب الحرب، مباشرة، مع ممثلي الاتحاد الأوربي ، والأمين العام للأمم المتحدة، بان كي مون، لكن تدهور الوضع في غزة لم يشجع الأتراك على التدخل، بقوّة، في ملف التهدئة من جديد بين حماس وإسرائيل، بيد أنه يجب الإشارة إلى أن تركيا كانت تؤيد، بقوة، حركة حماس، على اعتبار أنها حركة منتخبة من الفلسطينيين في

الانتخابات الفلسطينية التشريعية التي جرت ، في يناير ٢٠٠٦، كما أنها حركة إسلامية سنية كتركيا!

■ تركيا والاتحاد الأوربي :

تقربت تركيا، تمامًا، من العالم العربي ، ومن منطقة الشرق الأوسط بوجه عام ، لكن هذا لا يقارن بالتقرب من دول الاتحاد الأوربي على أمل الانضمام في المستقبل لدول الاتحاد الأوربي، لكن دول الاتحاد نفسه ، ترفض انضمام أنقرة اليهم نتيجة للوضع الاجتماعي الداخلي، والخلفية الإسلامية لتركيا، كما أن الخلاف الدائم بين التيارات العلمانية، وحزب العدالة والتنمية، والجيش كل في اتجاه مختلف ، كلها أسباب جوهرية تحول دون دخول تركيا ، أو انضمامها لدول الاتحاد الأوربي ، و الخلاف حول العلمانية في تركيا يشتد ،ويتسع بين الأتراك ، فضلاً عن أن الحكومة التركية قد ألقت القبض على عدد من أعضاء حركة « أرجنكون » التركية العلمانية المتشددة ، قد أثارت عاصفة هوجاء في الشارع التركي، وإن اعتبرت الحكومة أن الحركة تخلّ بالأمن العام ، وبحزب العدالة والتنمية .

تعتبر مشكلة الأكراد الأتراك، أو قضية وملف الأكراد بوجه عام، قضية شائكة تحول دون انضمام تركيا للاتحاد الأوربي، والاتحاد من جانبه يرفض دخول الأتراك الاتحاد ، لهذا السبب ، لكن هناك اتفاق بين الجيش التركي، وحكومة العدالة والتنمية الحاكمة حول القيام بعمليات عسكرية ضد الأكراد.

بالنسبة لروسيا فإنها تعزو لتركيا مكانة جيو استراتيجية، هامة، ومرموقة، منذ انتهاء الحرب الباردة ، وتجلى ذلك أثناء الحرب الجورجية – الروسية ، التي اندلعت ، في أغسطس ٢٠٠٨، ومحاولة مساندة الروس أمام الجورجيين ، ربما تكون عقبة كؤود أمام دخول تركيا للاتحاد الأوربي، كما أن مشكلة الأرمن هي مشكلة ، أيضًا، أمام

انضمام أنقره للاتحاد الأوربي، فالاتحاد الأوربي نفسه يحتاج إلى الدعم اللوجيتسي، والمخابراتي، والعسكري، لحل قضية إقليم ناجورنو كاراباخ، وإن كانت العلاقات التركية مع كل من أرمينيا، وأذربيجان، وروسيا، تتفاوت من حيث القوّة، أو الهشاشة في بعض الأوقات، فعلاقة روسيا بهاتين الدولتين قوية، إلى حد بعيد، خاصة مع أرمينيا.

الرئيس الفرنسي نيكولاي ساركوزى، والمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، يؤيّدان الموقف التركي، في الانضمام إلى الاتحاد الأوربي، لكن هذا لا يعني أن هناك موافقة كاملة على دخول تركيا الاتحاد الأوربي، لأنه مازالت هناك قضايا عالقة في أذهان الأوربيين، تجاه تركيا، خاصة قضية الأرمن، في حين يرى الأتراك أن المشاكل، أو القضايا التي تتخوّف منها الدول الأوربية، هي خلافات يمكن حلها، أو التفاوض حولها، والبحث عن حلول ناجعة لها، وإن كان الوضع الاقتصادي التركي سيحول دون إتمام محاولات الانضمام، خاصة وأن الاقتصاد التركي قد تأثّر، تمامًا، بالأزمة الاقتصادية العالمية، وارتفعت مؤشرات البطالة في المجتمع التركي، وقلّت معدلات النمو الاقتصادية إلى مؤشرات خطيرة، كما أن الاتحاد الأوربي يرى أن ثمة تغييرًا سيجرى في هويّة الاتحاد بعد دخول الأتراك إليهم، وهي مشكلة أخرى تقف حجر عثرة أمام انضمام أنقرة للاتحاد الأوربي.

■ نظرة عليا إلى الأمام:

تسبب أولمرت في إصابة العلاقات التركية ـ الإسرائيلية في مقتل، خاصة بعد الانتهاء من الحرب، مباشرة، وإن كانت المصالح المشتركة القوية بين البلدين من المفترض أن تحول دون توتر هذه العلاقات، لكن اعتبار تركيا نفسها أنها قوة إقليمية صاعدة، وأنها تحاول الحفاظ على مكانتها الإقليمية، فإنها عمدت على توتر

هذه العلاقات، وإن رغبت أنقرة في الحفاظ على بقاء علاقات مرنة بين البلدين، وعدم قطعها بشكل كلي - يعني الباب موارب - لكن هذا لا يعني أن تركيا تحاول الحفاظ على علاقات متوازنة مع كل من إيران، وسوريا، وحركة «حماس»، فهل ستقبل إسرائيل أن تحتل تركيا مكانة إقليمية، ودولية، رفيعة المستوى، وعلى حفاظها على علاقاتها بهذه الدول ؟

يتزامن تحسن العلاقات التركية مع كل من سوريا، وحركة « حماس »، مع تحسن العلاقات التركية - الإيرانية، حيث ترى تركيا في جارتها إيران قوة إقليمية أخرى، وإن كانت هذه العلاقات قد يسودها بعض التذبذب، خاصة حيال قضية السلام في المنطقة، والتي ترفضه إيران، نتيجة لتوسط الأتراك بين السوريين والإسرائيليين، وكذا محاولة التوسط بين المصالحة الفلسطينية، والتقرب الفلسطيني – الفلسطيني، ومحاولة فك الارتباط السوري - الإيراني، وإخراج دمشق من تحالفها الاستراتيجي مع طهران، حيث تعتبر إيران أنه تدخل في الشؤون الخارجية لها، باعتبار أن إيران لا تريد فك الارتباط مع السوريين.

بيد أن الحرب على غزة كانت سببًا جوهريًا في توتر العلاقات الإسرائيلية - التركية، لأن القضية الفلسطينية بالنسبة للأتراك أصبحت محورًا مهمًا في المنطقة، و أي إثارة للقضية الفلسطينية سيعود بالتالي، على مدى قوة، ومتانة العلاقات بين الطرفين.

من جانب آخر، فإن الإدارة الأمريكية قد اختارت بدورها طاقمًا أمريكيًا خاصًا لإدارة العلاقات مع تركيا، وحلفاء الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة، يأتي على رأس هذا الطاقم، هيلاري كلينتون، وزيرة الخارجية، ومستشار الأمن القومي جيمس جونز، وكذا روبرت جيمس، فيما يعتبر ملف الأرمن قضية مهمة في

العلاقات التركية - الأمريكية، حول مدى اعتراف واشنطن بحقيقة ارتكاب الأتراك لمذابح بحق الأرمن خلال الحرب العالمية الأولى، أم لا. لكن التقرب الأمريكي - الإيراني في الفترة الأخيرة، ربما يفتح الباب أمام تدخل تركي، مباشر، بينهما، لأن الولايات المتحدة تنظر، إيجابًا، للتوسط التركي بين السوريين والإسرائيليين.

كل هذه القضايا، والملفات تؤثر، إيجابًا، على العمق الاستراتيجي لتركيا، ومدى تعمقها وتغلغلها في منطقة الشرق الأوسط، لأنه من المصلحة التركية في الوقت الراهن، التدخل بالتوسط بين الدول المجاورة، وحل الصراعات بين الجانبين، والتوسط في حلها.

◆◆◆